تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بالتزكية وأثره في تخليق المجتمع المعاصر

الباحث عبد الحق بوتشيش
طالب سلك الدكتوراه، كلية الآداب، وجدة
مختبر: الحوار الحضاري والتكامل المعرفي
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

كثيرا ما يتحدث الأصوليون عن تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم ويقسمونها إلى أقسام عدة، كالتصرف بالنبوة والإمامة وغيرها. غير أن التصرف بالتزكية لم يحظ بكثير عناية، مع أنه أحد مقاصد البعثة النبوية إلى جانب تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة.

لذلك تهدف هذه المقالة إلى الكشف عن هذا الجانب ومدى استثمار البعد التزكوي النبوي، واستفادة التجربة الصوفية منه كمدخل لتخليق المجتمع وإعادة الاعتبار للقيم داخله، باعتبار الإنسان رأسمال كل إصلاح وتنمية.

والسؤال المحوري الذي تسعى للإجابة عنه هو: كيف نستفيد من فعل التزكية النبوية في إصلاح الإنسان المعاصر الذي يفتقد للقيم؟

جاءت الورقة على شكل مدخل مفاهيمي أتحدث فيه عن التعريف بالتصرفات والتزكية، وثلاثة مطالب، أشير في الأول منه إلى مفهوم تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بالتزكية والتأصيل له، وفي الثاني: بيان أزمة المجتمع المعاصر، وفي الثالث: إلى التخليق كمدخل لحل الأزمة، ثم خاتمة جامعة.

مدخل مفاهيمي: أشير فيه إلى التعريف بالتصرفات والتزكية.

1- تعريف التصرفات:

أ- التصرفات لغة:

صرف: الصاد والراء والفاء، معظم بابه يدل على رجع الشيء. من ذلك صرفت القوم صرفا وانصرفوا، إذا رجعتهم فرجعوا[1]. والصرف رد الشيء عن وجهه، وأن تصرف الإنسان عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك.

ومنه صرفت الصبيان؛ قلبتهم. وصرّف الشيء؛ أعمله في غير وجهه كأنه يصرفه عن وجه إلى وجه، ومنه كذلك تصاريف الأمور، أي: تخاليفها، فيقال: تصاريف الرياح والسحاب والسيول والخيول والأمور والآيات.

والصرف، التقلب والحيلة، يقال: فلان يصرف ويتصرف لعياله، أي يكتسب لهم.

والصرف: العدل[2]. وتصريف الآيات: تبيينها، وفي الدراهم والبياعات: إنفاقها، وفي الكلام: اشتقاق بعضه من بعض. وصرفته في الأمر تصريفا، فتصرف، قلبته فتقلب. واستصرفت الله المكاره، سالته صرفها عني[3].

يلاحظ من خلال المعاجم اللغوية أن المعاني تدور حول: الانتقال، والتبديل، أو التأثير من غير حيلة.

ب– التصرفات اصطلاحا:

لم يشهر مصطلح التصرفات كثيرا عند العلماء القدامى، بقدر ما اشتهر لفظ السنة، للدلالة على ما يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم، فنجد مثلا ابن قتيبة يطلق على التصرفات لفظ "السنة"؛ حيث قال: "والسنن عندنا ثلاث: الأولى: سنة أتاه بها جبريل عليه السلام عن الله.

والسنة الثانية: سنة أباح الله له أن يسنها، وأمره باستعمال رأيه فيها، فله أن يترخص فيها لمن شاء، على حسب العلة و العذر.

والسنة الثالثة: ما سنه لنا تأديبا، فإن نحن فعلناه كانت الفضيلة في ذلك، وإن نحن تركناه فلا جناح علينا إن شاء الله"[4].

النص هنا يشير الى التصرفات النبوية وتنوعها مستعملا السنة للدلالة عليها.

ونجد الإمام ابن القيم يطلق عليها لقب "المنصب" عند حديثه عن مقام الفتوى، إذ يقول: "وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيئين، عبد الله ورسوله، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، فكان يفتي عن الله عز وجل بوحيه المبين"[5].

ومن المعاصرين الذين تحدثوا عن التصرفات النبوية، الإمام الطاهر ابن عاشور وسماها "صفات" و"أحوالا" و"مقاما" وهو يقصد بها مصدر التصرف النبوي والباعث عليه.

قال: "إن لرسول الله صلى الله عليه و سلم صفات وأحوالا تكون باعثا على أقوال وأفعال تصدر منه"[6].

وممن كتب في الموضوع كذلك من المعاصرين وأطلق عليه لفظ "الأفعال" الدكتور محمد سليمان الأشقر.

من خلال كل ما سبق، يلاحظ أن هناك إطلاقات وتسميات متعددة لمسمى " التصرفات النبوية"، فما هو تعريفها الاصطلاحي؟

عرفها الدكتور سعد الدين العثماني بأنها: "عموم تدابير النبي صلى الله عليه وسلم التي تصدر عنه، سواء منها القولية أو الفعلية أو التقريرية". وعن سبب اختيار لفظ التصرف بدل لفظ السنة هنا، يسترسل الكاتب في بيان ذلك "بأن معنى السنة يحتاج إلى تدقيق نظرا لاختلاف استعمالاته بين العلماء... فإن لفظ " التصرفات" أدق في الاستعمال لأنه يعني عموم ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من و(أمور عملية)... سواء كانت للاقتداء أو لم تكن و سواء كانت في أمور الدين أو الدنيا"[7].

كما تم تعريف التصرفات النبوية بأنها: "كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه و سلم من أمور عملية بوصفه رسولا أو بشرا من أقوال أو أفعال أو إقرارات للاقتداء به أو اتباعه أو عدمه"[8].

وأقوال النبي (ص) يجري فيها على هذا الأسلوب فهي أفعال من حيث إنه صلى الله عليه وسلم أوقعها، فأخرجها إلى حيز الوجود ثم قد يكون قالها مرتبطة بزمان أمكان، كأذكار رؤية الهلال، ودخول المسجد الحرام، والوقوف بعرفة، وأذكار الصلاة... فتكون من هذه الجهة افعالا ويجري في الاستدلال بها في حقنا على قانون الأفعال"[9].

واختيار لفظ التصرف بدل السنة ناتج عن كون معنى السنة يحتاج إلى تدقيق نظرا لاختلاف استعمالاته بين العلماء، فقد يضم من و أفعاله (ص) ما هو مرتبط بالعقيدة، وهو الذي تقابله البدعة، كما يضم ما هو مرتبط بالأمور العملية، ويضم من هذه الأمور العملية ما هو تشريع يراد به الاتباع والاقتداء، وما ليس كذلك، ولأن لفظ السنة يحتمل كل هذه المعاني، فإن لفظ التصرفات أدق في

كما عرف الشيخ لولو السنة بأنها" عبارة عن أقوال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأفعاله، فيدخل في الفعل الإقرار"[11].

" والقول هنا فعل، لأنه معنى تكليفي لا تعريفي، فالتعريفي هو المعدود في الأقوال، وهو الذي يأتي به أمرا أو نهيا أو إخبارا بحكم شرعي، والتكليفي هو الذي لا يعرف بالحكم بنفسه من حيث هو قول، كما أن الفعل كذلك"[12].

وأول من اهتدى إلى النظر في هذا التمييز والتعيين العلامة شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، [13]

نجد يفرق في " الفرق السادس والثلاثون، بين قاعدة تصرفه صلى الله عليه وسلم بالقضاء، وبين قاعدة تصرفه بالفتوى وهي التبليغ وبين قاعدة تصرفه بالإمامة"

قال: " عْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ، وَالْقَاضِي الْأَحْكَمُ، وَالْمُفْتِي الْأَعْلَمُ؛ فَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إمَامُ الْأَئِمَّةِ، وَقَاضِي الْقُضَاةِ، وَعَالِمُ الْعُلَمَاءِ، فَجَمِيعُ الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ فَوَّضَهَا اللَّهُ تَعَالَى إلَيْهِ فِي رِسَالَتِهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَنْ تَوَلَّى مَنْصِبًا مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْمَنْصِبِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَا مِنْ مَنْصِبٍ دِينِيٍّ إلَّا وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ فِي أَعْلَى رُتْبَةٍ، غَيْرَ أَنَّ غَالِبَ تَصَرُّفِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالتَّبْلِيغِ؛ لِأَنَّ وَصْفَ الرِّسَالَةِ غَالِبٌ عَلَيْهِ ثُمَّ تَقَعُ تَصَرُّفَاتُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْهَا مَا يَكُونُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْفَتْوَى إجْمَاعًا، وَمِنْهَا مَا يُجْمِعُ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ بِالْقَضَاءِ، وَمِنْهَا مَا يُجْمِعُ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ بِالْإِمَامَةِ، وَمِنْهَا مَا يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ فِيهِ لِتَرَدُّدِهِ بَيْنَ رُتْبَتَيْنِ فَصَاعِدًا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ رُتْبَةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ أُخْرَى"[14].

فالقرافي جعلها أربعة أنواع؛ التبليغ، الفتوى، القضاء، الإمامة. وهو مبني على تقسيم شيخه العز بن عبد السلام في "فصل في الحمل على الغالب والأغلب في العادات" قال: "فمن هذا تصرف صلى الله عليه وسلم بالفتيا والحكم والإمامة العظمى، فإنه إمام الأئمة، فإذا أصدر منه تصرف حمل على أغلب تصرفاته وهو الفتيا ما لم يدل دليل على خلافه.

ومثاله قوله صلى الله عليه وسلم لهند امرأة سفيان لما شكت إليه إمساكه وشحه «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ»[15]

احتمل أن يكون الفتيا، واحتمل أن يكون حكما، فمنهم من جعله حكما والأصح أنه فتيا، لأن فتياه صلى الله عليه وسلم أغلب من أحكامه ولأنه لم يستوف شروط القضاء"[16].

وعقد الدهلوي بابا لأقسام علوم النبي صلى الله عليه وسلم وقسمها إلى قسمين:

- ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة فمنه ما يستند إلى الوحي ومنه ما مرجعه إلى الاجتهاد وهو بمنزلة الوحي؛ لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم من أن يتقرر رأيه على خطأ.

- ما ليس من باب تبليغ الرسالة، فيدخل فيه ما له تعلق بالطب وما سبيله التجربة وما فعله صلى الله عليه وسلم على سبيل العادة والأحكام والأقضية الخاصة[17].

وقال الطاهر بن عاشور وهو يتحدث عما سماها أحوالا للنبي صلى الله عليه وسلم وأقسامها: "وقد عرض لي الآن أن أعدّ من أحوال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التي يصدر عنها قول منه أو فعل – اثني عشر حالًا. منها ما وقع في كلام القرافي، ومنها ما لم يذكره، وهي: التشريع، والفتوى، والقضاء، والإمارة، والهدي، والصلح، والإشارة على المستشير، والنصيحة، وتكميل النفوس، وتعليم الحقائق العالية، والتأديب، والتجرّد عن الإرشاد"[18].

وذكر أن الغالب على أحواله والمقصد الأصلي من بعثه صلى الله عليه وسلم هي حال التشريع.

2- تعريف التزكية.

أ- التعريف اللغوي للتزكية.

انطلاقا من الجذر اللغوي: الزاي والكاف والحرف المعتل، يمكن حصر دلالته اللغوية في النماء والزيادة والتطهير، يقال الطهارة: المال، قال بعضهم: سميت بذلك لأنها مما يرجى به زكاء المال، وهو زيادته ونماؤه، وقال بعضهم: سميت زكاة لأنها طهارة، قالوا: وحجة ذلك قوله جل ثناؤه: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُ .زَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ". [التوبة: 104]، والأصل في ذلك كله إلى هذين المعنيين، وهما النماء والطهارة[19].

ويقال، زكاه الله وأزكاه.. وأرض زكية: طيبة سمينة؛. وأزكاه الله، وكل شيء يزداد وينمي فهو يزكو زكاء وتقول: هذا الأمر لا يزكو بفلان زكاء أي لا يليق به.

ب- التزكية في الاصطلاح.

للتزكية أسماء وتعاريف متعددة عند العلماء، فمنهم من يسميها التهذيب والرياضة، فقد عقد الإمام أبو حامد الغزالي كتابا خاصا في الإحياء للتزكية وسماه: "كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب"[20].

ويسميها الراغب: "الطهارة"[21]، وابن عاشور يطلق عليها: "تكميل النفوس"[22]؛ ويقصد بها تكميل نفوس الصحابة.

فهذه كلها ألقاب لمسمى التزكية، فما تعريفها الاصطلاحي؟

تم تعريف التزكية بأنها: "تطهير النفس من الشرك وما يتفرع عنه، وتحقيقها بالتوحيد وما يتفرع عنه، وتخلقها بأسماء الله الحسنى مع العبودية الكاملة لله بالتحرر من دعوى الربوبية، وكل ذلك من الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم".(23)

وقيل في تعريفها: "التزكية تطبيق هذا العلم –علم الشريعة– على النفس البشرية، وأمراضها، وأغراضها، ومعرفة بالتطبيب وطرقه، ومعرفة بالكمال وكيفية النقل إليه، وأدوات ذلك، وفراسة خاصة بكل نفس لنقلها من حال

إلى حال"[24].

وعرفها الدكتور ماجد عرسان الكيلاني بقوله: "هي عملية تطهير وتنمية شاملين هدفها استبعاد العناصر الموهنة لإنسانية الإنسان، وما ينتج عن هذا الوهن من فساد وتخلف وخسران وتنمية كاملة للعناصر المحققة لإنسانية الإنسان، وما ينتج عن هذه التنمية من صلاح وتقدم وفلاح في حياة الأفراد والجماعات.

فالتزكية حسب هذا التعريف نوعان:

1- تزكية معنوية ميدانها العقيدة والقيم والثقافة.

2- تزكية مادية ميدانها النظم والتطبيقات".(25)

إن التزكية منها اللازمة لذات الإنسان بإصلاحها، والمتعدية بنقل هذا الصلاح للمجتمع والمحيط، وذلك

من آثارها على الواقع.

و تزكية الإنسان نفسه ضربان: أحدهما بالفعل وهو محمود، وإليه قصد الحق سبحانه بقوله: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا" [الشمس: 9]، والثاني بالقول كتزكية العدل غيره، وذلك مذموم أن يفعله الإنسان بنفسه، وقد نهى الله تعالى عنه بقوله: {فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ} 31]، ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه عقلا وشرعا، ولهذا قيل لحكيم: ما الذى لا يحسن وإن كان حقا؟ فقال: مدح الإنسان نفسه"[26].

من خلال التعريفات السابقة للتزكية، يمكن القول في تعريفها: إنها تلك العملية التطهيرية لباطن الإنسان، قصد الرقي به وإصلاح ما فسد فيه.

المطلب الأول: تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بالتزكية:

يمكن القول: إن تصرف النبي ص بالتزكية هو ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم مما قصده تهذيب النفوس وإصلاح الباطن. والتي تعتبر إحدى أهم وظائف النبوة.

ومما ذكره ابن عاشور ووقف معه: "حال تكميل النفوس وحال تعليم الحقائق العالية فذلك مقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخاصةِ أصحابه، وحال التأديب.[27]

يقول ابن القيم " فَإِنَّ تَزْكِيَةَ النُّفُوسِ مُسَلَّمٌ إِلَى الرُّسُلِ. وَإِنَّمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ لِهَذِهِ الْتَّزْكِيَةِ وَوَلَّاهُمْ إِيَّاهَا. وَجَعَلَهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ وَ بَيَانًا، وَإِرْشَادًا، لَا خَلْقًا وَلَا إِلْهَامًا. فَهُمُ الْمَبْعُوثُونَ لِعِلَاجِ نُفُوسِ الْأُمَمِ ... وَ تَزْكِيَةُ النُّفُوسِ: أَصْعَبُ مِنْ عِلَاجِ الْأَبْدَانِ أَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ. فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَزْكِيَتِهَا وَصَلَاحِهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِمْ. وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، وَبِمَحْضِ الِانْقِيَادِ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُمْ"[28]

" هذا وإن الأقوال كانت هي الوسيلة الرئيسية للنبي صلى الله عليه وسلم في أداء هذه المهمات. ولكن مع ذلك كانت الأفعال النبوية تؤدي دورا بارزا في تنفيذ المهمات المطلوبة خصوصا مهمة البيان و مهمة التعليم و التزكية"[29].

فبعثة النبي صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتطهير البواطن من كل ما يكدر صفاءها، ويشغلها عن خالقها، و يزكي النفوس ويروضها ويخلصها من مختلف الآفات والشهوات. لحديث: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"(30).

فلقد كانت الجاهلية تعيش في وحل، فأتى صلى الله عليه وسلم فاستخرجها منه بمنة الله وفضله " لقد منّ الله على المؤمنين..." وكان ذلك بعمل دائب وجهد جهيد وتضحية ثلاث عشر سنة بمكة كلها لتأصيل بناء أساسيات العقيدة و تزكية العقول وتطهير ثم جاءت بعد ذلك دور الشريعة و بناء الدولة في المدينة.

فلقد كانت تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بمكة بدار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسة للتربية والتعليم وتهييء النفوس والقلوب لتلقي كلام الله.

ففيها وفق الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى تكوين الجماعة الأولى من الصحابة وتربيتهم وإعدادهم إعدادا خاصا ليؤهلهم لاستسلام القيادة وحمل الرسالة.

وكانت المادة الدراسية التي قام بتدريسها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الدار القرآن الكريم فهو المنهج و الفكرة المنهجية التي يترتب عليها الفرد والجماعة.[31]

يقول سيد قطب: "... انتصر محمد صلى الله عليه وسلم يوم صنع أصاحبه عليهم رضوان الله صورا حية من إيمانه، تأكل الطعام و تمشي في الأسواق يوم صاغ من كل منهم قرآنا حيا يدب على الأرض يوم جعل من كل فرد نموذجا مجسما من الإسلام يراه الناس فيرون الإسلام.

إن النصوص وحدها لا تصنع شيئا، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلا، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون

ومن ثم جعل محمد صلى الله عليه وسلم هدفه الأول أن يصنع رجالا لا أن يلقي مواعظا وأن يصوغ ضمائر لا أن يلقي خطبا و ان يبني أمة لا أن يقيم فلسفة، أما الفكرة ذاتها فقد تكلف بها القرآن الكريم و كان عمل محمد " ص" أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيادي وتراهم العيون[32].

فما كان من أعمال العبد من عمل طاهر قوبل به من الباطن، فما صح فوافق باطنه صلح وقبل ظاهره. وما خالف وفسد باطنه ردت عليه أعمال ظاهرة وإن كثرت وخسر ظاهرها لفساد باطنها.

ويحقق ذلك كله قول الله تعالى "وذروا ظاهر الإثم وباطنه" الأنعام:120. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ يَنكحها، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».(33)

و قوله ص: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»(34).

فالحق جل وعلا قد أهّل نبيه ص لهذه المهمة من خلال حادثة شق صدره صلى الله عليه وسلم مرتين لنزع حظ الشيطان منه تطهيرا لقلبه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ "، كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ».(35)

قال ابن حجر في شرح باب المعراج في الفتح: "فَالْأَوَّلُ وَقَعَ فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ كَمَا عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ فَأَخْرَجَ عَلَقَمَةُ فَقَالَ حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ وَكَانَ هَذَا فِي زَمَنِ الطُّفُولِيَّةِ فَنَشَأَ عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْعِصْمَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثُمَّ وَقَعَ شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ الْبَعْثِ فِي إِكْرَامِهِ لِيَتَلَقَّى مَا يُوحَى إِلَيْهِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ فِي أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ مِنَ التَّطْهِيرِ ثُمَّ وَقَعَ شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ إِرَادَةِ الْعُرُوجِ إِلَى السَّمَاءِ لِيَتَأَهَّبَ لِلْمُنَاجَاةِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْحِكْمَةُ فِي هَذَا الْغَسْلِ لِتَقَعَ الْمُبَالَغَةُ فِي الْإِسْبَاغِ بِحُصُولِ الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ".(36)

كَانَ هَذَا التَّقْدِيسُ وَهَذَا التَّطْهِيرُ مَرَّتَيْنِ.

الْأُولَى: فِي حَالِ الطُّفُولِيَّةِ لِينقَّى قَلْبُهُ مِنْ مَغْمَزِ الشَّيْطَانِ وَلِيُطَهَّرَ وَيُقَدَّسَ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ حَتَّى لَا يَتَلَبَّسَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُعَابُ عَلَى وَحَتَّى لَا يَكُونَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ إِلَّا التَّوْحِيدُ وَلِذَلِكَ قَالَ فَوَلَّيَا عَنِّي، يَعْنِي: الْمَلَكَيْنِ وَكَأَنِّي أُعَايِنُ الْأَمْرَ مَعًا يَنَةً.

وَالثَّانِيَةُ: فِي حَالِ اكْتِهَالِ وَبَعْدَمَا نُبِّئَ وَعِنْدَمَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى الْحَضْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي لَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا إِلَّا مُقَدَّسٌ وَعُرِجَ لِيُفْرَضَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَلِيُصَلِّيَ بِمَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ وَمِنْ شَأْنِ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ فَقُدِّسَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَغُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ.

وَفِي الْمَرّةِ الْأُولَى بِالـ ثّـلْجِ لِمَا يُشْعِرُ الـ ثّـلْجُ مِنْ ثَـلْجِ الْيَقِينِ وَ بَـرْدِهِ عَلَى الْفُؤَادِ وَكَذَلِكَ هُنَاكَ حَصَلَ لَهُ الْيَقِينُ بِالْأَمْرِ الّذِي يُـرَادُ رَبّهِ.(37)

المطلب الثاني: أزمة المجتمع المعاصر.

ويمكن حصر مظاهر هذه الأزمة في فروع ثلاثة:

الفرع الأول: غلبة البعد المادي.

لقد اعتقد الإنسان المعاصر أنه سيحقق كل أشكال السعادة المرجوة عبر التّقانة والتطور العلمي والفكري، فأسس حضارة مادية في أرقى مستوياتها لإشباع كل رغبات الجسد، لكن برغم كل هذا التقدم المادي لم يدرك ما يصبو إليه، حيث أصبح يعيش الفراغ الداخلي و انعدام الأمن الروحي، حتى اتسمت الحضارة المعاصرة بكونها حضارة القلق[38]، فقد تحدث "فرويد" عن الإنسان القلق الذي يعيش زمن القهر والتسلط والقمع، والصراعات النفسية والمجتمعية والحروب، الإنسان الذي طالما سعى جاهدا لتحقيق سعادة لم يدركها، في صورة متشائمة وقاتمة عن الحضارة المعاصرة.

واتصف الإنسان المعاصر بأنه "إنسان طبيعي مادي"[39]، يعيش استنارة مظلمة، للإشارة إلى الجوانب التي تفكك الإنسان ولا تمنحه أي مركزية، أو مكانة خاصة أو مزية على الكائنات الأخرى[40].

إن القاعدة الروحية الأخلاقية في أي مجتمع، هي التي تتحمل الأثقال التي تتولد من طبيعة الحياة المادية والاجتماعية، وعن الانتكاسات التي تصاب بها الأمة في ميادين الحياة المختلفة[41].

الإنسان في الغرب ينظر إلى الأرض دائما لا إلى السماء، وحتى المسيحية باعتبارها الدين الذي آمن به هذا الإنسان مئات السنين، لم تستطع أن تتغلب على النزعة الأرضية في الإنسان الغربي، بل بدلا من أن ترفع نظرها إلى السماء، استطاع هو أن يستنزل إله المسيحية إلى الأرض و يجسده في كائن أرضي، وهذه النظرة إلى الأرض أتاحت للإنسان الغربي أن ينشئ قيما للمادة والثروة والتملك، تنسجم مع تلك النظرة[42].

فحتى العلوم الإنسانية نفسها طرحت بديلا للدين في تنظيم الشؤون الحياتية والروحية للإنسان، فكان عليها

أن تصبغها بقيمها ومفاهيمها الجديدة، لتعيد تشكيل تصوراتها ومعتقداتها وأخلاقياتها ومثلها وفق معطيات العلم الذي لا يؤمن بغير المحسوس، ولا يعترف بوجود قوة خارقة تتجاوز قوة الإنسان كفرد إلا في إطار الإنسانية ككل، ككائن جمعي يسمو عن الفرد[43].

إن الغرب قد فقد تعادل القوة والأخلاق والتوازن بين العلم – بظاهر من الحياة الدنيا – والدين منذ قرون،

فلم تزل القوة والعلم في أوربا بعد النهضة الجديدة ينموان على حساب الدين والأخلاق، ولم يزل الأولان

في ارتفاع وارتقاء، والآخران في انخفاض وانحطاط، حتى بعدت النسبة بينهما، ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض وهي كفة القوة والعلم، وخفت الثانية – وهي كفة الأخلاق والدين – حتى ارتفعت جدا، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة، وبينما هو قد بلغ الغايات ووراء الغايات في الكماليات وفضول الحياة، إذا هو لم يعرف المبادئ الأولية والبديهيات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاق، فتراه يصعد إلى السماء ويريد أن يناطح الجوزاء، وهو لم يتقن شئون الأرض ولم يصلح ما تحت قدميه، وقد خولته العلوم الطبيعية قوة قاهرة وهو لا يحسن استعمالها، كطفل صغير أو سفيه أو مجنون يملك أزمة الأمور ويؤتى مفاتيح الخزائن، فهو لا يزيد على أن يعبث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة ويعيث في دماء الناس ونفوسهم[44].

وهذا الذي نذكره لا يقتصر فيه الحال على عالم الغرب فقط، بل اتسع الأمر ليشمل الكثير من المسلمين عبر عولمة القيم الكونية المادية ووسائل الإعلام والانبهار بالحضارة المعاصرة.

إن الدين وإن كان حاضرا في الغرب متمثلا في المسيحية واليهودية، غير أنه يغلب عليه الطابع الشخصي الذاتي ولا أثر له في واقع التشريعات والمعاملات والحياة العامة، بل هو نفسه اصطبغ بصبغة المادية وعجز عن ملء الفراغ الروحي الحاصل في النفوس.

الفرع الثاني: تأليه السوق.

لقد أصبح الهدف النهائي من الوجود في الكون في مرحلة ما بعد الحداثة السائلة هو الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، وما يحرك المستهلك هو اللذة، فالاستهلاك بالنسبة للمستهلك واجب /حق؛ فيصبح الاستهلاك – لا الإنتاج – هو هدف المجتمع، ولم يعد هدف المجتمع إشباع الحاجات وإنما تخليقها، وأصبح نمط الاستهلاك وإشباع اللذة، وليس ممتلكات الفرد وإنتاجيته، مؤشرا على مكانته في المجتمع[45].

كما أصبح الإنسان "إنسانا متشيئا"[46]، كأنه شيء من أشياء الطبيعة لا غير، "فسيطرة الإنسان على الإنسان ما تزال تمثل في الواقع الاجتماعي، وبالرغم من كل تغير استمرارا تاريخيا، وما تزال هناك رابطة بين العقل ما قبل التكنولوجي والعقل التكنولوجي... فالتبعية التي تخضع المرء لنظام أشياء موضوعي (القوانين الاقتصادية، السوق...) فالسيطرة الآن تعتمد على درجة أكبر من العقلانية"[47].

إننا نواجه واحدا من أكثر مظاهر المجتمع الصناعي المتقدم مدعاة للأسف: الطابع العقلاني للاعقلانية، فهذه الحضارة منتجة ناجعة قادرة على زيادة الرفاه... أصبح مفهوم الاستلاب بالذات إشكاليا، فالناس يتعرفون على أنفسهم في بضائعهم، ويجدون جوهر روحهم في سيارتهم وجهازهم التلفزيوني الدقيق الاستقبال، وفي بيتهم الأنيق، وأدوات طبخهم الحديثة، إن الآلية التي تربط الفرد بمجتمعه قد تبدلت هي نفسها، والرقابة الاجتماعية تحتل مكانها في قلب الحاجات الجديدة التي ولدتها[48].

إنها "حضارة الهامبرجر، الحضارة الاستهلاكية العالمية، وهي إحدى إفرازات الحداثة المنفصلة عن القيمة، بتأكيدها على الفرد المطلق الذي لا مرجعية له سوى ذاته وقوانين الطبيعة/المادة"[49]، حيث ابتسامة الإعلان الترويجي هي ابتسامة إله وجد في نهاية المطاف لحل نزاعات البشر، وهوس الشراء الجنوني[50].

فدخل الإنسان في دوامة تدور رحاها من غير توقف، بل استهلاك و مزيد من الاستهلاك عن طريق الموضة والإشهارات البراقة.

فالسوق فعال، لكنه لا يملك عقلا ولا قلبا، هكذا لخص "بول ساموبلسن" الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، خطورة منطق اقتصاد السوق على المجتمع[51].

الفرع الثالث: التأزم الأخلاقي.

لقد قام المشروع المركزي للتنوير في العصور المتأخرة في الغرب، على استبدال الأخلاق المحلية والعرفية والتقليدية وكل أشكال الإيمان المتعالي، بأخلاق نقدية وعقلانية، قدمت كأساس لحضارة كونية وتحت إمرة العقل البشري الذي انفصل أخيرا عن المبادئ الأخلاقية التقليدية[52].

إن عذاب الغربيين الحقيقي يتمثل في هذا الوعد الذي لم يتحقق ولن يتحقق، وهو الرهان على أن التقدم اللامحدود في المعارف والتبادلات سيواكبه نمو أخلاقي للإنسان واعتراف متبادل بين بني البشر[53].

فالخطر الكبير الذي يهدد حاضر ومستقبل الغرب؛ هو الصعود المأساوي لنوع جديد من الأزمات: أزمة الانسان.

إن فلسفة الليبرالية المتطرفة التي تسود الغرب، تؤدي باسم الإباحية والفردانية إلى القضاء على كل ما هو أخلاقي، وإلى إقصاء العامل الإنساني في الاقتصاد، والنتيجة اقتصاد متوحش، يمكن مقارنته بمائدة لآكلي لحوم البشر يأكل فيها القوي الضعيف... فحضارتنا هي الأولى في التاريخ التي تجيب على سؤال: ما معنى الحياة؟ بلا أدري "اندري مالرو" [54].

ولقد أرجع المفكر عبد الكريم بكار الأزمة الأخلاقية المعاصرة إلى عوامل ومصادر ثلاثة، وهي:

أ- المسألة الحاسمة في مجال الأخلاق، وهي (إطارها المرجعي)، بمعنى المصدر الذي نستمد منه الحكم

على وصفة أو قيمة بأنها حسنة أو قبيحة، والجهة التي ستتولى الإثابة أو العقوبة عليها، ففي العالم الغربي ذهب معظم الفلاسفة إلى واضع القيم هو الإنسان، ويذهب بعضهم إلى أن واضعها هو المجتمع، ومحصلة ذلك

أن العقل البشري هو الأساس الذي يتشكل عليه الإطار المرجعي لجميع القيم؛ وهذا في الحقيقة يجعل الأخلاق والقيم أسيرة لأهواء البشر، وملونة بألوان البرمجات المحلية ومقولات البيئات الثقافية المختلفة والمصالح الحيوية.

إن فقد مصدر الأخلاق لتعاليه ومطلقيته، يجعلها تبدو هشة ومعلقة في الفراغ، ومفتقرة إلى المعيار الموضوعي.

ب- تعاني المنظومات الخلقية في العالم الإسلامي من عدوان بعض أبنائه عليها، حيث إن بعض المثقفين الذين فتنوا بتفوق الغرب وتقدمه، جعلوا من أولوياتهم تفكيك المنظومات الخلقية السائدة بين المسلمين، باعتبارها عائقا قويا لأمام التقدم؛ فقد افترضت(الحداثة العربية)أنه يجب بناء كل نشاط على العلم، واعتبرت مل مالا يخضع للمعايير العلمية جزءا من أوهام الإنسان القديم، وعاملا من عوامل استلابه، وقد حاولت أن تصور القيم الإسلامية بأنها تقليدية وبالية ومنحطة وجامدة.

ج.- المصدر الثالث لتأزم الأخلاق في عصرنا هذا، هو سوء الأحوال المعيشية التي تكتنف حياة كثير من الناس في بلادنا الإسلامية خاصة، وعدم ملاءمة الأجواء العامة السائدة للتفتح الخلقي، وعدم مساعدتها على الالتزام بالفضيلة.

ومن الواضح أن كثيرا من المجتمعات الإسلامية، تئن تحت مطارق الفقر والجهل والمرض والبطالة والاستبداد، كما أن شروط العيش الكريم فيها تزداد صعوبة يوما بعد يوم، وكثير من الشباب الذين قذفت بهم الثانويات والجامعات إلى معترك الحياة، يشعرون بالإحباط وانسداد الآفاق، وهذا كله لا يشكل الوسط الصالح للاستقامة الخلقية، ولا لوضوح المثل العليا في أذهان الناس[55].

وقد أصبح للناس عقيدتان: عقيدة نظرية وعقيدة اجتماعية، العقيدة النظرية تنتمي إلى (المطلق) البعيد عن المصالح والظروف؛ فالمسلم يعتقد أن الكذب والغش والرياء، والسكوت على الباطل محرمة، لكن من خلال حركته اليومية، ومن خلال خبرته، يقيم موازنات دائمة بين مبادئه وعقائده، وبين مصالحه والضغوط التي تمارس عليه، وينتج عن هذه الموازنات شيء اسمه:(العقيدة الاجتماعية)، العقيدة الاجتماعية: هي ترجمة لمبادئ المرء ومصالحه، و مركز التوازن بينهما، وهي في كثير من الأحيان أقرب إلى أن تكون انعكاسا للواقع المعيش من أن تكون أفقا نظريا.

هناك عقول كثيرة حائرة في الغرب، عقول تبحث جادة عن منفذ إلى خارج النفق المظلم الذي هو نفق التاريخ الغربي المتأرجح بين العدمية وبين الإنسانوية، بين البدائية وبين التطاول المهول في العمران، بين انعدام المنعى المؤسس لحركة الإنسان، وبين الحركة القائمة على التأسيس المطلق الكلي للتاريخ، يقول جريجوري دافيس: "نحن

في حاجة إلى حضارة كوابح"، وبالمعنى نفسه يلح كينيث وايت على ضرورة الخروج من تاريخ الغرب[56].

إن الحداثة الغربية تتعرض اليوم لمراجعة من لدن مفكرين كبار بغية إعادة التوازن إليها، وإيجاد علاقة جديدة بين العلم والإيمان، حتى إن بعضهم يذهب إلى أن العصر الوضعي قد ولى، وأصبح خلفنا لا أمامنا، وأننا الآن

على عتبة عصر جديد، هو عصر ما بعد الحداثة، وهو عصر أقرب إلى الإيمان منه إلى الإلحاد[57].

فمتى سلمنا بأن التطور المادي التقني التكنولوجي الذي شهدته الحضارة المعاصرة...بحيث بسط الإنسان سيطرته التقنية على هذا العالم، إذ تمكن من اكتشاف أعماق البحار و من الارتقاء إلى السماء، و بقدر ما تنطع في أنواع من المتعة و اللذة الحسيتين، إذ تجاوز الحد في استباحة المحرم و المحظور، ضيق هذا الانسان على الروح ساحتها وسد المطلع في الأرض أمام الجسد، و أصبح التيه وفقدان الوجهة يمثلان أبرز سمة من سمات المجتمعات المعاصرة كلها، مجتمعاتنا نحن مثل مجتمعات الآخر، وذلك لما استدرجت البشرية إلى العيش وفق نمط حضاري واحد، يستغلق على طرائق الأمم المتعددة في تعمير الأرض... فهل نحن أقدر على التفكير في إخراج أنفسنا وإخراج غيرنا، من نفق تاريخ العلو في الأرض مما نحن عليه اليوم من قدرة على طلب علو النهضة؟[58].

ذلك هو سؤال الوقت وواجب العصر الذي ينتظر منا نحن المسلمين الإجابة والإسهام في البناء الأخلاقي، وإصلاح ما اعوج في الحضارة المعاصر.

المطلب الثالث: التخليق كحل للأزمة.

أرى أن تخليق و تزكية الإنسان المعاصر تكون عبر مدخلين أساسين: الأول بالاستفادة من الإرث النبوي والتراث الإسلامي الغني، والثاني: عبر إيجاد وتكوين المسلم القيادي الرباني المصلح.

الفرع الأول: الاستفادة من التجربة الصوفية.

أؤكد أن حاجتنا إلى التنمية الروحية والأخلاقية، لا تقل بحال من الأحوال عن حاجتنا إلى التنمية المعرفية

أو الاقتصادية، حيث إن التقدم الحضاري من غير قاعدة روحية وخلقية، سيكون مشكوكا فيه، وما يتحقق منه، لن يكون مصدر حقيقية، وأزمتنا إنما هي أزمة الإنسان أولا وأخيرا، لذلك وجب الاهتمام به وفق القيم الفطرية الربانية الكامنة داخله.

وخميرة التنمية الروحية موجودة، فبالإضافة إلى المنهج والتراث الأخلاقي الغني، لدينا الملايين من الرجال والنساء الذين يعدن نماذج راقية في الطيبة والاستقامة والسمو الخلقي[59].

إنه بدون الاستفادة من التجربة الصوفية باعتبارها وارثة لمنهج النبوة في باب التربية والتزكية، قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس البشرية التي عقدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر، فكما أن الكثير من المسائل اليومية احتجنا للإجابة عليها لرأي الفقيه، فإن من المسائل العقلية والروحية والنفسية نحتاج فيها لتجربة المجرب...و نقطة البداية في صحة أمتنا هو وجود طبقة من الوراث الكاملين، يغطون احتياجات الدعوة بما يسع الأمة أعتبر ذلك هو الخطوة اللاحقة التي لا بد منها، وأي فشل في ذلك إنما هو فشل في الصميم[60].

إن كل الحلول في الرؤية الإسلامية، هي حلول تتم في الداخل أولا، ثم يتم الانطلاق إلى الخارج للأمم التي لم تجد الطريق الصحيح في الحياة، وتلك التي تعرفه ولا تجد الطاقة لدفع تكاليف السير فيه، تحاول دائما أن تغطي

على مشكلاتها الداخلية بالاتجاه إلى الخارج، تتسول منه الحلول، أو تصرف عن طريقة الانتباه عن أزماتها الداخلية من خلال اختراع حرب مع قريب أو بعيد، ولا يختلف سلوك الأفراد أيضا عن هذا المسلك، فحين تجف المنابع الداخلية للعيش الهانئ، فإن كثيرا من

الناس يسعون –بدل إعادة الحيوية إليها– إلى تنظيم البيئة من حولهم، ويضفون عليها المزيد من اللمعان، كما يندفعون إلى اللهو والأكل والشرب والجلوس أمام(التلفاز) ...

إن كل سياق إصلاحي لشؤون الأمة يجب أن يرتكز على سياق داخلي ذاتي، يتمثل في تحسين الخصائص، والأوضاع النفسية والسلوكية، وإلا فإن النتائج ستكون مخيبة للآمال.

كان المهتمون بتزكية النفوس في الماضي يركزون على نحو أساسي على ما يمكن أن نسميه ب (قمع النفس) وضبطها وإماتة نزعاتها، أكثر من التركيز على الثقة بالنفس والاعتداد بها، وتلمس أوجه تقويتها وهذا أفرز أحيانا نتائج سيئة على المستوى الاجتماعي، حيث صار الناس الأطهر نفوسا، والأكثر صلاحا وزهدا يعيشون على هامش المجتمع، وهذا حرم الأمة من عطاءاتهم العظيمة، كما مهد لتكون القوة –بمعناها الشامل– بيد من لم ينل داخله من التزكية سوى القليل[61].

نعم نأخذ ما هو إيجابي في التراث الصوفي المستمد من الكتاب والسنة، والتجربة الواسعة للمتصوفة في مداخل إصلاح النفوس وتقية الصلة بالله، وكذا التأكيد على مركزية الأخلاق، وأنها صفات ضرورية يختل بفقدها نظام الحياة لدى الإنسان، وليست هي مجرد صفات عرضية أو كمالية لا يقدح تركها الا في مروءته.

فماهية الإنسان تحددها الأخلاق وليس العقل، بحيث يكون العقل تابعا للأخلاق فيكون محمودا متى أفاد ويكون مذموما متى أساء، و ليس العكس، و أن الأخلاق مستمدة من الدين المنزل، كما أن الإنسان بموجب أخلاقيته، لا يستطيع أن يتجرد كليا من حال التدين ولو سعى إلى ذلك ما سعى، لأنه وإن أبى التدين اختيارا من حيث يدري، فإنه يقع فيه اضطرارا من حيث لا يدري، و أن الهمة الأخلاقية للإنسان أقوى من الأمر الواقع، وأن العقل المجرد الذي اختار الانفصال عن العمل الديني لا تلبث أفعاله أن تنقلب إلى نقيض

فالتزكية لا تكتفي بدفع ما جد من آفات سلوكية واختلالات قيمية عند الأفراد والمجتمعات، أو حتى بتحصيل الوقاية منها، بل لا تكتفي باكتساب المناعة ضدها، و إنما تتولى بالأساس تفجير الممكنات الأخلاقية والمكنونات الروحية لدى الأفراد والجماعات سيعا إلى الرقي بإنسانيتهم التي بها يتميزون عن غيرهم من الكائنات بحيث يكون الأصل في التزكية هو الترقية –أي التنمية الخلقية والروحية– وليس مجرد التقويم، تصحيح أو إصلاحا أو علاجا أو وقاية... فواجب الإنسان في العالم الائتماني أن يطلب التقدم المعنوي كما يطلب التقدم المادي، بل واجبه أن يجعل التقدم المادي تابعا للتقدم المعنوي، و إلا فلا تقدم في إنسانيته، حتى و لو بلغ ما بلغ في التحقيق المادي لذاته، و حصل المجتمع الذي يؤويه ما حصل من ألوان الازدهار التقني[63].

كما لزم أن تكون التزكية هي أقدر من غيرها على التصدي للعلل الاجتماعية، بل للآفات العالمية، للاعتبارات التالية:

- أن هذه التزكية تخرج الفرد من نطاق التعلق بوجوده الضيق إلى نطاق التوجه إلى وجود أفسح وجود قد يتعدى المجتمع إلى العالم وما فوقه.
- أن ثروة الفرد الخلقية والروحية هي ثمرة التفاعل بين الجهود التربوية المبذولة داخل الجماعة والتنافس

على تجديد الذات من أجل تجديد الآخر، نهوضا بواجب تطوير الإنسانية [64].

فبذلك نستطيع الإقناع أن التزكية والتخلق هو الخلاص من التيه والضلال الحضاري المعاصر، عبر قيادات ذات كفاءات تمثل النموذج في التدين.

الفرع الثاني: إيجاد قيادات ربانية.

إن الحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية وانتقال دفة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التي أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة.

إن حقا على العالم الإسلامي أن يمني نفسه بهذا المنصب الخطير، ويطمح إليه، وإن حقا على كل بلد إسلامي وشعب إسلامي أن حيازيمه لذلك، وإن حقا على كل مسلم أن يجاهد في سبيله ويبذل ما في وسعه، فهذه هي المهمة الشريفة التي نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود، ويوم طهرت نواتها في جزيرة العرب[65].

انظر إلى بلاد ضعفت فيه الدعوة إلى الله والربانية و تزكية النفوس من زمان... وإصلاح الباطن –بنفوذ الحضارة الغربية أو بعوامل اخرى–. إنك تشعر فيها بفراغ هائل لا يملأه التبحر في العلم ولا التعمق في التفكير...إنها أزمة روحية و خلقية لا علاج لها... إلا في التزكية النبوية وفي الربانية[66].

إن كثيرا من الناس لا تنظر إلى الأقوال و الخطابات، بل تريد أن ترى الدين و الأسوة الصالحة نماذج تمشي بينها، فمع التكوين المعرفي للمسلم القيادي الذي يحمل هم الرسالة و التبليغ، لا بد من الربانية والتكوين الخلقي، استنادا للمنهج النبوي في التربية مع تأكيد صلاحية تنزيله على كل عصر، فهو صاحب الرسالة الخالدة العالمية.

إن الذي يتدين لنفسه و يتعزل الأمة وواقعها، لم يفهم حقيقة الدين، إننا نحتاج من يؤم الناس في الاقتصاد والصناعة والإعلام والتقانة، يكون القدوة برقي أخلاقه قبل رقي منصبه، آنذاك سيأتي الآخرون بأنفسهم ليسألوا عن هذا الدين.

إن الدين الذي صنع حضارة وقاد العالم في الماضي، هو نفسه قادر على فعل ذلك اليوم، فقط يحتاج إلى رجال ينهضوا به علما بالتمكن من لغة وخطاب العصر، وحالا وأخلاقا وربانية لتحقيق عالمية الإسلام، فالناس تحتاج إلى أن ترى الإسلام في صفائه متمثلا سلوكا وخلقا يمشي في أرض الواقع مشاهدا ملموسا، وليس فقط خطابا مسموعا.

خاتمة:

إن استثمار ما ورثناه عن الصوفية فقهاء النفوس عبر الوسائل التي اعتمدوها، مع الاجتهاد والإضافة إليها وتيسير تقديمها للأمة والعالمين اليوم، سيكون كفيلا في عملية الرشد لعالمنا المعاصر الذي أضل السبيل، ويحتاج إلى هاد أمين صادق متحقق بالجمع بين فقه النصوص وفقه النفوس.

ولعل من أبرز النتائج التي تم التوصل إليها في هذه الورقة هي:

- ✓ بيان أصالة علم التزكية ومشروعيته.
- ✓ أن التزكية النبوية كانت أحد أكبر وسائل إصلاح المجتمع آنذاك.
- ✓ أن أساس الأزمة المعاصرة في شتى جوانبها ليس طبيعيا ولا تكنولوجيا بل في الموارد البشرية.
- ✓ أن التزكية مدخل لا غنى عنه لإعادة الاعتبار لإنسانية الانسان، في زمن طغيان البعد المادي.
- ✓ ضرورة الانفتاح على التجربة الصوفية التي عنيت بجانب إصلاح باطن الإنسان واستثمارها في عملية التخليق.

الهوامش:

[1] معجم مقاييس اللغة. ابن فارس تح عبد السلام هارون، دار الفكر 1399هـ- 1979م، 343/3.

[2]لسان العرب. ابن منظور، دار صادر-بيروت-ط:3، 1414هـ. 189/9-190.

[3]القاموس المحيط، الفيروز آبادي. تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة-بيروت-ط: 1426.8هـ/2005م، 827/1.

[4]تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري ت276هـ، المكتب الاسلامي مؤسسة الاشراق، ط:2 ، 1419هـ-1999م.

ص: 283-286.

[5]اعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية ت751هـ. تعليق: أبو عبيدة مشهور ابن حسن السلمان، دار ابن الجزي-السعودية ط:1، 1423هـ، 17/2.

[6] مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر 1425 هـ- 2004م، 96/3.

[7] تصرفات الرسول بالإمامة: الدلالة المنهجية والتشريعية، سعد الدين العثماني، منشورات الزمن، 2002م، ص: 8.

[8] أثر معرفة التصرفات النبوية في التعامل مع الحديث فقها وتنزيلا، زهير عبد السلام، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف د منصور كافي جامعة الحاج لخضر. كلية العلوم الانسانية والاجتماعية والعلوم الاسلامية – الجزائر، السنة الجامعية: 1432 / 1433هـ / 2012/2011م. ص:31.

[9] أفعال الرسول (ص) دلالتها على الأحكام الشرعية، سليمان الأشقر، 35/34/2.

[10] تصرفات الرسول (ص) بالإمامة. سعد الدين العثماني. ص:8.

[11] الضياء اللامع شرح جمع الجوامع في أصول الفقه، أحمد بن عبد الرحمان لولو، تح: عبد الكريم نملة، مكتبة الرشد الرياض، ط: 1 . 1426هـ / 2005م، 119/2.

[12] الموافقات، أبو اسحاق الشاطبي. تح، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان. ط: 1، 1417هـ/ 1997م، 421/4.

[13] مقاصد الشريعة، الطاهر بن عاشور، 99/3.

[14] أنواع الفروق، شهاب الدين القرافي ت: 684هـ، علم الكتب، د ط، 206/1.

[15] صحيح البخاري، كِتَابُ النَّفَقَاتِ بَابُ إِذَا لَمْ يُنْفِقِ الرَّجُلُ فَلِلْمَرْأَةِ أَنْ تَأْخُذَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ مَا يَكْفِيهَا وَوَلَدَهَا بِالْمَعْرُوفِ، رقم: 5364 تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: 1، 1422هـ، 65/7.

[16] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عزالدين بن عبد السلام. ت: 660هـ، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكلية الأزهرية القاهرة. ط: 1414هـ، 142/2.

[17] حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي ت: 1176 هـ، تح: السيد سابق دار الجيل، بيروت – لبنان ط:1، 1426 هـ- 2005م، 223/1.

[18] مقاصد الشريعة، 99/3.

[19]- مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة "زكا" 17/3.

[20]- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)، دار المعرفة – بيروت، د ت، 48/3.

[21]- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهانى (المتوفى: 502هـ)، تح: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام – القاهرة 1428 هـ - 2007م، ص: 86.

[22]- مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، 120/3.

[23]- المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، دار السلام، -مصر- ط: 10، 1424هـ/2004م. ص: 153.

[24]- الأساس في التفسير، سعيد حوّى (المتوفى 1409 هـ)، دار السلام – القاهرة، ط: 6، 1424 هـ، 322/1.

[25]- مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها، د ماجد عرسان الكيلاني، عالم الكتب بيروت، ط: 1416هـ-1995م، ص:127.

[26]- بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، 133/3.

[27] مقاصد الشريعة، 120/3-126

[28] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي. ط: 3 / 1416هـ / 1996م، 300/2.

[29] الأشقر سليمان، 30/1.

[30] مسند الإمام أحمد، رقم: 8952.

(31) السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث. علي محمد الحلابي. دار المعرفة. بيروت. ط: 7/1429هـ/2008م، ص: 97-98.

(32) دراسات إسلامية، سيد قطب، دار الشروق مصر، ط: 11، /1427هـ / 2006م، ص: 26-27.

(33) صحيح البخاري، كتاب النكاح بَابُ مَنْ هَاجَرَ أَوْ عَمِلَ خَيْرًا لِتَزْوِيجِ امْرَأَةٍ فَلَهُ مَا نَوَى رقم: 5070، 3/7

(34) صحيح البخاري كتاب الايمان بَابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ رقم: 52. 20/1.

(35) صحيح مسلم كتاب الايمان، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ رقم: 261. 147/1

(36) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني دار المعرفة - بيروت، 1379هـ. 205/7.

(37) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي (المتوفى: 581هـ)تح: عمر عبد السلام السلامي دار إحياء التراث العربي، بيروت ط:1، 1421هـ/ 2000م، 111/2.

(38)- ينظر: "قلق في الحضارة"، سيجموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط:4، 1996م.

(39)- دراسات معرفية في الحداثة الغربية، د عبد الوهاب المسيري، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط: 1، 1427هـ-2006م، ص: 18.

(40)- المرجع نفسه، ص: 26

(41)- عصرنا والعيش في زمانه الصعب، عبد الكريم بكار، دار القلم دمشق، ط:1، 1421هـ-2000م، ص: 206.

(42)- "الليبرالية الجديدة وأزمة الإنسان"، عبدالناصر الفنطروسي، مجلة المنعطف، المغرب، عدد: 9، 1415هـ-1994م، ص: 81.

(43)- "العلوم الإنسانية في المنظومة الغربية، دراسة نقدية في الأسس المنهجية"، محمد أمزيان، مجلة المنعطف، المغرب، عدد: 9، 1415هـ-1994م، ص:96.

(44)- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي (المتوفى: 1420هـ)، مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر، ص: 191-192

(45)- دراسات معرفية، المسيري، ص: 106.

(46)- المرجع نفسه، ص: 29

(47)- الإنسان ذو البعد الواحد، هربرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الأدب بيروت، ط: 3، 1988م، ص: 181.

(48)- المرجع نفسه، ماركوز، ص: 45.

(49)- دراسات معرفية، المسيري، ص: 301

(50)- الانسان ذو البعد الواحد، ماركوز، ص: 67.

(51)- الليبرالية الجديدة وأزمة الإنسان، عبدا لناصر الفنطروسي، مجلة المنعطف، المغرب، عدد: 9، 1415هـ-1994م، ص: 76.

(52)- الدولة المستحيلة: الاسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، وائل حلاق، ترجمة عمرو عثمان، مراجعة ثائر ديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط: 1، 2014م، ص: 40.

(53)- الإنسان ذو البعد الواحد، ماركوز، ص: 247.

(54)- "الليبرالية الجديدة وأزمة الإنسان"، عبدا لناصر الفنطروسي، مجلة المنعطف، المغرب، عدد: 9، ص: 75.

(55)- عصرنا والعيش في زمانه الصعب، ص: 32-35.

(56)- "محاولات النهوض بين منطق الإلحاق وإمكانات التجاوز"، خالد حجي، مجلة المنعطف، عدد: 18-19، 1422هـ-2001م، ص: 45.

(57)- عصرنا والعيش في زمانه الصعب، عبد الكريم بكار، ص: 28.

(58)- "محاولات النهوض بين منطق الإلحاق وإمكانات التجاوز"، خالد حجي، المنعطف، عدد: 18-19، ص: 42

(59)- عصرنا والعيش في زمانه الصعب، ص: 38

(60)- تربيتنا الروحية، سعيد حوى، ص: 16.

(61)- عصرنا والعيش في زمانه الصعب، بكار، ص: 173.

(62)- روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الاسلامية، طه عبد رحمان، المركز الثقافي العربي المغرب، ط:1، 2006م ص: 16

(63)- بؤس الدهرانية، النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، طه عبد الرحمان، المكتبة العربية للأبحاث والنشر، بيروت

ط: 1، 2014م، ص: 16-17.

(64)- بؤس الدهرانية، طه عبد الرحمان، ص: 18

(65)- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الندوي، ص:228-229.

(66)- ربانية لا رهبانية، الندوي، ص: 16-17.